السيد محمد بيرم

لاحد الادباء

ولد هذا العالم العامل في بيرم سنة ١٢٥٦ (مارس سنة ١٨٤٠) بمدينة تونس من بيت علم وتجد وكان جدهُ الاعلى قد حضر الى تونس رئيسًا على احدى فرق العساكر العثمانية التي فتحت تونس من يد الاسبانيول تحت قيادة الصدر الاعظم سنان باشا سنة ٩٨١ في عهد السلطان سليم الثاني فاقام فيها وتزوج ببنت الى الابار سفير آخر ملوك غرناطة الاندلسي الذي ارسلهُ يستنجد لهُ سلطان المغرب حين تغلّب الاسبانيول عليهِ كما هو مبسوط في نفح الطيب وغيرهِ . فتناسل بيت بيرم من هذين الاصلين وتقلبت ابناؤهُ في الوظائف العسكريّة والسياسيّة وصاهروا بيت الاشراف العريقين بتونس ثم دخلوا في سلك العلميّة وتولوا وظائفها السامية بحيث بقيت رئاسة الفتوى الحنفيّة المعبر عنها هناك بمشيخة الاسلام وكذلك نقابة الاشراف ببيتهم مئة سنة وسنة . ولم يزل العلم رافعًا منارهُ بينهم الى الآن . ولما شبّ السيد محمد بيرم وكان جدهُ لامهِ وزير البحريّة اراد ان يدخلهُ في الخدمة العسكريّة فانعهُ عمهُ وكان شيخ الاسلام منضلاً بنفسهِ في خدمة العلم الشريف فدخل جامع الزيتونة وتلقّى الدروس عن فحول علمائهِ واخذ الاجازة عنهم . وفي ٦ جمادى الاولى سنة ١٢٧٨ وجّه اليهِ الامير (باي تونس) مشيخة المدرسة العنقيّة وحضر مع اكابر رجال دولتهِ اول درس القاهُ فيها في صحيح البخاري في ٢٥ رمضان من تلك السنة . ولم تزل الوظائف العلميّة بسائر انواعها معترضة بتونس ولا تعطى الاّ لكبار العلماء وسراة القوم . وفي ٩ جمادى الثانية من تلك السنة جعلهُ مدرسًا بجامع الزيتونة من الطبقة الثانية وفي ١٥ رجب سنة ١٢٨٤ جعلهُ مدرسًا من الطبقة الاولى . وسنة ١٢٩١ نظم الامير الاوقاف بالقطر التونسي وكانت قد تولتها ايدي الخراب فعهد اليهِ بنظارتها فنظمها بعد شدة الاحتاج عليهِ من صديقهِ الصدر الاسبق خير الدين باشا كبير وزراء تونس فنظم ادارتها وجمع ما تبدّد منها وشيّد ما تهدّم وصرف مرتبات العلماء والاشراف والمستحقين في اوقاتها وتركها شيئًا عاليهِ من كل جانب وقد ضاعف ايراداتها كما هو مثبتٌ في حسابات تلك الادارة المنشورة في اعداد الرائد التونسي سنة ١٢٩٣ و ١٢٩٧

ولما شُرع في انشاء المدرسة الصادقيّة وهي اول مدرسة نظمت على الطريقة الجديدة

في تونس كان صاحب الترجمة من جملة المساعدين على تنظيم نظاماتها وتثبيت دعائمها وبعد ذلك بقليل نظم تكاناً جمع فيه عدداً وافراً من الكتب النفيسة التي كانت عرضة للتلف والضياع وسماها المكتبة الصادقية وجعل نفقاتها من الاوقاف وكانت تحت نظره الى حين خروجه من تونس . وفي ١٠ جمادى الثانية سنة ١٢٩٢ عُهِدَت اليه نظارة مطبعة الحكومة وكانت معطلة النظام قليلة الارقام فنظمها واصلح شؤونها واصدر الرائد التونسي (الجريدة الرسمية) في مواعيده المعينة كل اسبوع مرة وكان لا يصدر الاّ بحسب التيسير . ولما كان الرائد هو الجريدة الوحيدة التي تصدر في تونس بذل كل ما في وسعه لجعله مفيداً لبني وطنه واستعان على ذلك بجهابذة اعلام ونشرت فيه مقالات رنانة حاثة على الجامعة والوحدة والعدل والائتلاف لا سيّما زمن حرب الدولة العليّة مع الروسية

وسنة ١٢٩٦ اتم صاحب الترجمة تنظيم المستشفى التونسي المعروف الآن بالمستشفى الصادقي وكان في حالة سيئة جداً فاعدّ له مكاناً رحباً في موقع ملائم للصحة وجعله على قسمين احدهما مجاني للفقراء يسع مئة مريض والآخر للموسرين وكلاهما متقن الترتيب والنظافة كما هو مشاهد في احسن مستشفيات اوربا . واحضر له الآلات والمعدات اللازمة حسب الطرق الحديثة ورتّب فيه محلاً مخصوصاً للعيانين وقد افتتحه الامير بنفسه وخاطب صاحب الترجمة بخطبة منشورة في الجريدة الرسمية مظهراً كمال امتنانه من اجراآته واهدى اليه في ذلك اليوم هديّة نفيسة ثم عزم ان يقلده نيشان الافتخار فاعتذر بانه لم يسبق للعلماء في تونس قبول النياشين

وفي تلك السنة تطاول احد اعوان الوزير مصطفى بن اسماعيل على القاضي المالكي في المحكمة الشرعية فهاجت الناس لذلك وماجت واتفق العلماء على استعمال كل الوسائط لصيانة ناموس الشريعة وحفظ حقوق الامة فقالوا في ظاهر الامر ما كانوا يطلبونه من عزل الوزير وتشكيل مجلس للشورى يرتبط به الامير فنظم الامير هذا المجلس والّفه من كبار رجال دولته ومنهم صاحب الترجمة عن غير رضىً منه للنظر في مهمات امور الحكومة تحت رئاسة الوزير الاكبر نفسه وكان ذلك في ١١ رجب سنة ١٢٩٦ . وكثر في ذلك الوقت تداخل قنصل فرنسا في شؤون الحكومة فانتُدِب صاحب الترجمة ليتوجه الى فرنسا ويعرض حقيقة الحال على الموسيو غامبتا صاحب القول الفصل بين امته وعُهِدَ بمثل هاته المأمورية الى المرحوم حسين باشا ليقوم باداتها لدى البرنس بسمارك فسافرا من تونس في يوم واحد ووصل السيد بيرم الى باريس واجتمع بغامبتا ولاقى منه لين الجانب والاصغاء للشكوى

ووعده بتنزيح الحال في اقرب وقت واوصاه بشدة الكتمان حتى لا يقال ان دولة عظيمة مثل فرنسا ابدلت قنصلها لشكيات حكومة صغيرة . فاسرع صاحب الترجمة وبشر الوزير سرًّا بنجاح مسعاه فذاع الخبر وطرق مسامع القنصل فاستشاط منه غيظًا . ودعا ذلك الى استعفاء صاحب الترجمة من جميع وظائفه فلم يقبل استعفاءه فاستأذن في التوجه الى الحجاز لاداء فريضة الحج فأذن له بعد الالحاح الشديد وتوسط بعض السادة الاشراف فحضر الى مصر وتشرف بمقابلة الجناب الخديوي التوفيقي وصادف ذلك اوائل ولايته السعيدة . وبعد ان ادّى الحج والزيارة في الحرمين الشريفين ونال من المرحوم الشريف حسين باشا امير مكة المكرمة جميل الالتفات توجه الى الاستانة العلية عن طريق الشام حيث لاقاه اهلها ولا سيما واليها المرحوم مدحت باشا بكل اكرام واحتفلت به جمعية المقاصد الخيرية في مدارسها احتفالاً شائقًا . واقام في دار الخلافة معزّزًا مكرمًا وتنضلت الآلاء السلطانية بتعيين منزل لسكناه وترتيب ما يلزمه من النفقات مع الانعام بالشرف النفيس وهو اعتباره ضيفًا على امير المؤمنين . وقد سعى سفير فرنسا في اول الامر ليثني عزيمة صاحب الترجمة عن البقاء في الاستانة العلية وطالبه منه ان يعود الى وطنه سالمًا او يقيم في الجزائر فلم يجبه الى ذلك . ولما كانت الدولة العلية مشغولة مع الروسية لم تمكن من الالتفات الى مسئلة تونس ثم فاجأتها حادثة خمير التي بني عليها اعلان حماية فرنسا على تونس . وقد طُلب من صاحب الترجمة ابداء رأيه فيها فكتب في ذلك تقريرًا مفصلاً سيأتي ذكره بين مؤلفاته

وحيث كان من القواعد الشهيرة المقررة ان كل ذي نعمة محسود توجهت اليه اعين الحساد وقوي الاغراض وكدروا عليه صفو عيشه حتى التجأ الى الانزواء في بيته عدة اسابيع لا يخرج الاّ لاداء فرض او قضاء عمل ضروري واعتُقب هذا اشتداد المرض العصبي عليه وكان ملازمًا له منذ سنين لكثرة اشغاله العقلية وعالجه كثيرًا فلم ينجع فيه علاج وجال لاجله في الاقطار . واطيبت الجرائد اذ ذاك بذكر محاسن مصر ونعيمها ومفاخر اقليمها مع ما كان يعلمه صاحب الترجمة بالخبر من لين عريكة اهاليها وترحاب اميرها وذوقها فعزم على الانتقال اليها واختيارها مقامًا فارتحل اليها بعائلته في محرم سنة ١٣٠٢ فلاقي بها ما كان يأمله من كرم الوفادة وجميل اللقيا بما انشأه نعيم الاوطان وصداقة الخلان . ولما كان من طبعه الذي لا يألف سواه حب الاشتغال ونبذ الاعتزال اراد ان يتعاطى شغلاً يسليه عن آلامه وحُسّن له امر المطابع مع ما يروق له من الشغل بالتحرير فنشر جريدة الاعلام وقد ظهر منها ٢٦٩ عددًا وطبع على نفقته كثيرًا من الكتب العلمية

والادبيّة مراعيًا في ذلك النفع لبني جنسهِ ووطنهِ غير مبالٍ بالاتعاب الفكريّة والخسائر المالية . وفي سنة ١٣٠٤ توجه آخر مرة الى اوربا للمعالجة وجال في ايطاليا وفرنسا وحضر الاحتفال بعيد مأتمة انكلترا الخمسيني في مدينة لندن حيث لاقى من كبار رجالها ما انطق لسانهُ بالثناء واقسد ما كان يبلغهُ عن القوم من الكبر والجفاء . وتجاذب مع اولياء امورها اطراف الحديث عن احوال مصر والمقارنة بين ما كانت عليهِ وما يأمل ان تؤول اليهِ ثم رجع الى وطنهِ الجديد

وفي ١٢ جمادى الاولى سنة ١٠٦ ا (١٤ يناير سنة ٨٩) وجهت اليهِ العناية التوفيقيّة اعلى الله منارها ورفع على الاقدار اقدارها وظيفة قاضٍ بمحكمة مصر فحض لطف وحسن ظن بهِ وكان من قبل نصب عينيهِ واحب شيء لديهِ التوفيق بين الشريعة الغراء والقانون المصري فشرع في ذلك ولم تمكنهُ صحتهُ من الاستمرار عليهِ وقد صار عضوًا في عدة لجنات تألفت للنظر في امور تتعلق بالمحاكم والقانون من جملتها اللجنة المشهورة التي تشكلت في نظارة الحقانيّة لتقرير اشكال المحاكم الاهليّة المستجدة في الوجه القبلي وقد عاضد على هذا الامر كثيرًا وناضل في تلك الاثناء عن وجوب جعل القانون ملائمًا لاخلاق الاهالي وعوائد البلاد بما يبقي لهُ اثرًا محمودًا كما انهُ عُيّن عضوًا في لجنة خصوصيّة تألفت في نظارة الداخليّة لمراجعة الاحكام التي صدرت من قومسيونات الاشقياء وقررت الافراج عن كثير من المحبوسين لظهور شدة العقاب عليهم ورحمة بهم وكانت آخر اعمالهِ الرسميّة

وكان صاحب الترجمة مولعًا بالسياحة واستطلاع احوال الامم فجال في عدّة اقطار للتداوي والترفّض والاستراحة من تعب الافكار التي اورثتهُ مرضًا عصبيًا لازمهُ ثلاث عشرة سنة فزار ايطاليا وشاهد احسن مدنها وصادف ان بلغ خبر وجودهِ في رومة البابا بيوس التاسع فطلبهُ للاجتماع بهِ وعيّن لذلك يومًا ولما كان اليوم المذكور خارجًا عن الميعاد المحدّد لاقامة صاحب الترجمة برومة اعتذر عن عدم امكان الاجابة . ثم طاف في جهات فرنسا وانكلترا والمانيا والنمسا ورومانيا والبلغار واليونان وبعض جزائر البحر الابيض المتوسط ككورسكا وسردينيا ومالطة وكورفو وغيرها وبلاد الجزائر وجال في اكثر انحاء القطر المصري . وقد تعرّف اثناء رحلاتهِ العديدة باكثر رجال العصر المشهورين في الشرق ومن كانت لهُ علاقة بهِ من رجال المغرب وعظمائهِ مثل سمو البرنس اوف ويلس ولي عهد انكلترا واللورد سالسبري واللورد رسلي واللورد رايبون واللورد نورثبروك والمرشال مكماهون وغيرهم واودع ما شاهدهُ وعاينهُ ولاحظهُ في سياحاتهِ في كتاب سماهُ "صفوة

الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار" وقسمه الى خمسة اجزاء لم يطبع منها سوى اربعة والمهمة معذولة في اتمام طبع الجزء الخامس. ولما كان شديد الولع بتطبيق الاحكام الشرعية على مقتضيات الاحوال الوقتية ادمج كثيرًا من ذلك القبيل بهذا الكتاب وقد قرظه كثير من الجهابذة الاعلام بتقاريظ شائقة كالمرحومين الشيخ عبد الهادي نجا الابياري وسعد الله باشا سفير الدولة العلية في فينا سابقًا وعبد الله فكري باشا ناظر المعارف العمومية المصرية سابقًا ووردت عليه كتابة من قبل جلالة ملك السويد والنرويج اوسكار الثاني بالشكر على اهداء نسخة من ذلك الكتاب اليه

ومن تآليفه في حال صباه رسالة سماها "تحفة الخواص في حل صيد بندق الرصاص" طبعت بمصر سنة ١٢٠٤ حقق فيها الخلاف في تلك المسألة وذهب الى جواز اكل الصيد المصطاد بالبندق المذكور. ومنها رسالة في احكام السادة الاشراف وبيان ما يلزم لهم من التعظيم والتكريم طبعت ايضًا سنة ١٣٠٣ ورمته بسببها جملة من الاعادي بسهام رجعت عليهم بالملام. ومنها رسالة سماها "التحقيق في مسئلة الرقيق" نشرت في جريدة المقتطف الغراء سنة ١٨٩١ ذهب فيها الى صحة منع الرقيق شرعًا الآن لعدم توفر شروطه التي انبنى عليها. ومنها تحرير لطيف في تلخيص العروض جمعه في حال صباه لتسهيل اقتناء ذلك الفن ورسالة في احكام اسدال الشعر شرعًا. وبحث تاريخي في اصل ارتباط تونس بالدولة العلية واسباب تداخل فرانسا فيها وما يراه لازمًا لحفظ استقلالها وذلك عند ظهور المسئلة التونسية. ومنها جواب على حرره لبعض نبلاء الانكليز عند ما سأله عما اذا كان اهل تونس مرتاحين للرضوخ الى دولة اجنبية وقد بين في هذا الجواب حب ارتباط المسلمين بالخلافة الاسلامية وان المسلمين ليسوا باقل الامم ميلاً لاستقلالهم. ومنها رسالة في احكام سكنى دار الحرب بين فيها مع غاية الايضاح حالة بلاد المسلمين الآن وطبق الحكم الشرعي على ذلك. ومنها رسالة في الرد على رسالة موسيو ارنست رنان العالم الفرنسوي المشهور التي عنوانها "الاسلام والعلم" وقد دحض السيد بيرم في رسالته هذه بطلان القول بان الاسلام اطبأ نور العلوم وبين انه ساعد على انتشارها واستدل بما اكتسبه المسلمون منها وما فاقوا فيها بما فاق على غيرهم بكثير واسهب في بيان الفنون والعلوم التي استنبطها المسلمون. ومنها تحرير في مسئلة الفائض الذي يدفع على الاوراق المالية المتعاملة في دیون الدول. ومنها تطبيق النظامات الشورویة على الشريعة الاسلامية. ومنها مجموعة ضخمة مهمة في فتاوى فقهية على مذهب الامام ابي حنيفة النعمان سماها "الروضة السنية في الفتاوي اليرمية".

وله عدّة كتابات غير هذه في مسائل وقتيّة كمسئلة التعليم في مصر ذهب فيها الى لزوم التعليم باللغة العربيّة . ومسئلة الاحكام المصريّة اوضح فيها اجمالاً ما رآهُ موافقًا من القوانين للشريعة الاسلامية وما هو غير موافق . وتقريرهم في الاصلاحات التي جرت في الاوقاف بتونس . وله عدة شروح على بعض من الاحاديث الشريفة النبويّة . ولما اهدى مولانا السلطان الاعظم بعض خيول عتاق الى امبراطور المانيا المتوفى فردريك الثالث حينما كان وليّ عهد كلّف صاحب الترجمة بكتابة رسالة ادبيّة عربيّة في وصف تلك الخيول على الاسلوب العربي القديم فقام بذلك حسب الامر

وله عدة تحاريرسياسيّة وقصائد وابيات شعريّة في اغراض شتى وقد وردت عليهِ عدّة خطابات سامية فعند تبارحهِ دار السعادة ارسل اليهِ صاحب الدولة رضا باشا باشكاتب الحضرة السلطانيّة كتابًا شريفًا يتضمن صدور الارادة السنيّة بالمساعدة على السفر الذي كان طلبهُ ومنها مكاتيب بخط سموّ امير تونس المعظم واخرى من قبل سلطان زنجبار المرحوم السيد برغش وملك بهوبال ونظام حيدراباد وغيرهم من الامراء والكبراء

وتوفي الى رحمة الله بعلة ذات الجنب مع الداء العصبي الذي انهك قواهُ وكان ذلك بمدينة حلوان في ليلة الخميس ٢٥ ربيع الثاني سنة ١٣٠٧ (١٨ ديسمبر سنة ١٨٨٩) ودفن في صباح يوم الجمعة بقرافة الامام الشافعي بالمدفن الذي شيدهُ صاحب الدولة والاقبال رياض باشا رئيس نظار الحكومة المصريّة اذ ذاك وشيع مشهد جنازتهِ دولة الباشا المشار اليهِ وكثير من العلماء والكبراء والاعيان وكان الجناب الخديوي المعظم اطال الله بقاءهُ كثير السؤال عنهُ اثناء مرضهِ واظهر مزيد اسفهِ عليهِ لما بلغ مسامعهُ الكريمة خبر نعيهِ وتلطف باظهار التفاتهِ العالي لعائلة الفقيد رحمهُ الله وجعل الجنة مثواهُ

لسع البعوض في الحمى الصفراء

قال اثنان من اطباء هافانا بجزيرة كوبا حيث يكثر الداء الفتاك المعروف بالحمّى الصفراء انهما يعالجان القادمين حديثًا الى جزيرة كوبا بان يدعا البعوض يلسعهم بعد ان يلسع انسانًا مصابًا بالحمى الصفراء فتنحرف صحتهم قليلاً ثم يشفون ولا تعود الحمّى الصفراء تصيبهم الاّ نادرًا . وقد دخل هافانا مرّة ٦٥ راهبًا فطُعِّم ٢٣ منهم بلسع البعوض وتُرِك الباقون بلا تطعيم فاصيب من المطعمين اثنان فقط بالحمّى ثم شفيا منها واما غير المطعمين فأُصيب منهم احد عشر ومات خمسة منهم . وقد امتحن الطبيبان المذكوران هذه الواسطة مدة عشر سنوات